نظرية جديدة فى :

تاريخ بناء جامعة القرويين

بين الحين والآخر تكشف لنا الأيام عن نظريات فى تاريخ المغرب كانت إلى الأمس القريب تعتبر فى عداد الأسرار الدفينة ، الأمر الذى يؤكد أن تاريخنا بحق لم يكتب كما يجب بل قد ناله فى بعض المراحل كثير من التزوير والتحريف. وهكذا فمنذ زمن غير بعيد طالعنا الأستاذ ليفى بروفنصال بنظريته حول تأسيس مدينة فاس استناداً على وثائق فيها النقول العربية وفيها بعض القطع النقدية ، هـذه النظرية التى تتلخص فى أن بانى عدوة الأندلس من فاس هو إدريس الأول بينما كانت عدوة القرويين من عمل إدريس الثانى ... وطالعتنا بعد ذلك عمليات التنقيب التى قام أساتذة آخرون أمثال ماسلوف وطيراس فى جهات متعددة من المغرب ومنها جامع القرويين على حقائق أخرى كانت إلى هذا الوقت خفية على كثير ممن يعنون بالتاريخ ، على أن بين مؤرخينا المغاربة أنفسهم ـ وفيهم طائفة تمتاز بالمصابرة والمثابرة فى البحث ـ طالعونا ـ وما يزالون ـ على دفائن أخرى جديرة بالتنويه والإشادة وأذكر من هؤلاء على الخصوص الأساتذة محمد الفاسى والمختار السوسى وعبد الله كنون ومحمد داود وعبد العزيز بن عبـد الله ومحمد التطوانى ومحمد المنونى ومحمد بن تاويت وأمثالهم ممن توفروا على هواية تاريخية نافذة فراحوا يؤلفون وينشرون. بيد أن كل هذه «الفتوحات» تحتاج دوما إلى تضافر الجهود حتى تحتـل مكانها فى التاريخ وبالتالى حتى تصبح فى متناول التلميذ والطالب والأستاذ . . .

ولا أهدف بهذه المقدمة إلى أن أثير الانتباه إلى هذا « الفتح الجديد » بقدر ما أهدف إلى تصحيح صفحات من تاريخنا المبكر... إن كل أولئك الذين كتب لهم

أن يزاولوا الدراسات التاريخية بصفة عامة وتاريخ المغرب بصفة خاصة يذكرون جيدا أن ابن أبى زرع فى القرطاس والجزنائى فى زهرة الآس وابن خلدون فى تاريخه وسائر من تبع هؤلاء ، يجمعون على أن مسجد القرويين بمدينة فاس بنى سنة ٢٤٥ بمطالعة العاهل الإدريسى يحى الأول ، وأن أم البنين فاطمة الفهرية التى تطوعت ببنائه ، ظلت صائمة إلى أن انتهت أعمال البناء وصلّت فى المسجد شكراً لله . . . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن كتب التاريخ تطبق ـ ولا أقول تكاد تطبق ! ـ على أنه لما توفى إدريس الثانى قام بالأمر بعده ابنه محمد بعهد منه إليه وأن هذا الأخير لما ولى، قسم بلاد المغرب بين كبار إخوته بإشارة من جدته كنزة فاختص كل منهم بجهة وكان من بينهم داود بن إدريس الذى استأثر بإقليم تازة ، ورددت الكتب بعد ذلك صدى « الفتنة » بين بنى إدريس على أثر هذا الإقطاع لكنها لم ترجع بحال لذكر داود لا فى عداد الثائرين على السلطة المركزية ، ولا فى عداد الذين قاموا بتهدئة الثورة . . .

تلك هى الحقائق التى حفظناها ، لكننا اليوم أمام وثيقة ساعدت إلى حد كبير على معرفة مدى صحة تلك « الحقائق » .

نحن الأن أمام لوحة نقشت على عهد الأدارسة أنفسهم عثر عليها فى واجهة القبة الرابعة عند البلاط العمودى من جهة العنزة ، أى فى منتهى « البلاطات الأربعة » للقرويين الأولى ... لقد اكتشفت مدفونة فى الجبس تحت كثافة سبعة سنتيمترات تقريبا ، مكتوبة بالخط الكوفى العتيق وهى، ولو أن طائفة من حروفها منهوك ومتعب، غير أنها مقروءة فى الجملة ولم يفت منها إلا قدر يسير من أولها وآخرها . هى لوحة من طول أربعة مترات وأربعة وسبعين سنتيمترا ولكنها ليست عريضة إذ أن سعتها لا تصل إلى عشرة سنتيمترات ، لقد حملت إلينا — فيما حملت — تاريخ بناء القرويين أعنى شهر ذى القعدة من سنة ثلاث وستين ومائتين ثم هى أى اللوحة المذكورة تحمل سرا ثانيا يفوق الأول ذلك أنها تنصف عاهلا إدريسيا اضطرت الكتب لذكره فى

جملة عابرة على أنه عامل لإقليم تازة مع أنه كان السلطان الشرعى على عاصمة الملك، فاس، فى هذه الفترة الغامضة التى عاشها المغرب إثر توزع الأمر بين بنى إدريس . هذا العاهل هو الإمام داود بن إدريس الذى كان بالأمس صاحب تازة. لقد نقش على هذه اللوحة اسمه على النحو التالى : « مما أمر به الإمام أعزه الله داود بن إدريس أبقاه الله ونصره نصرا عزيزا ... » .

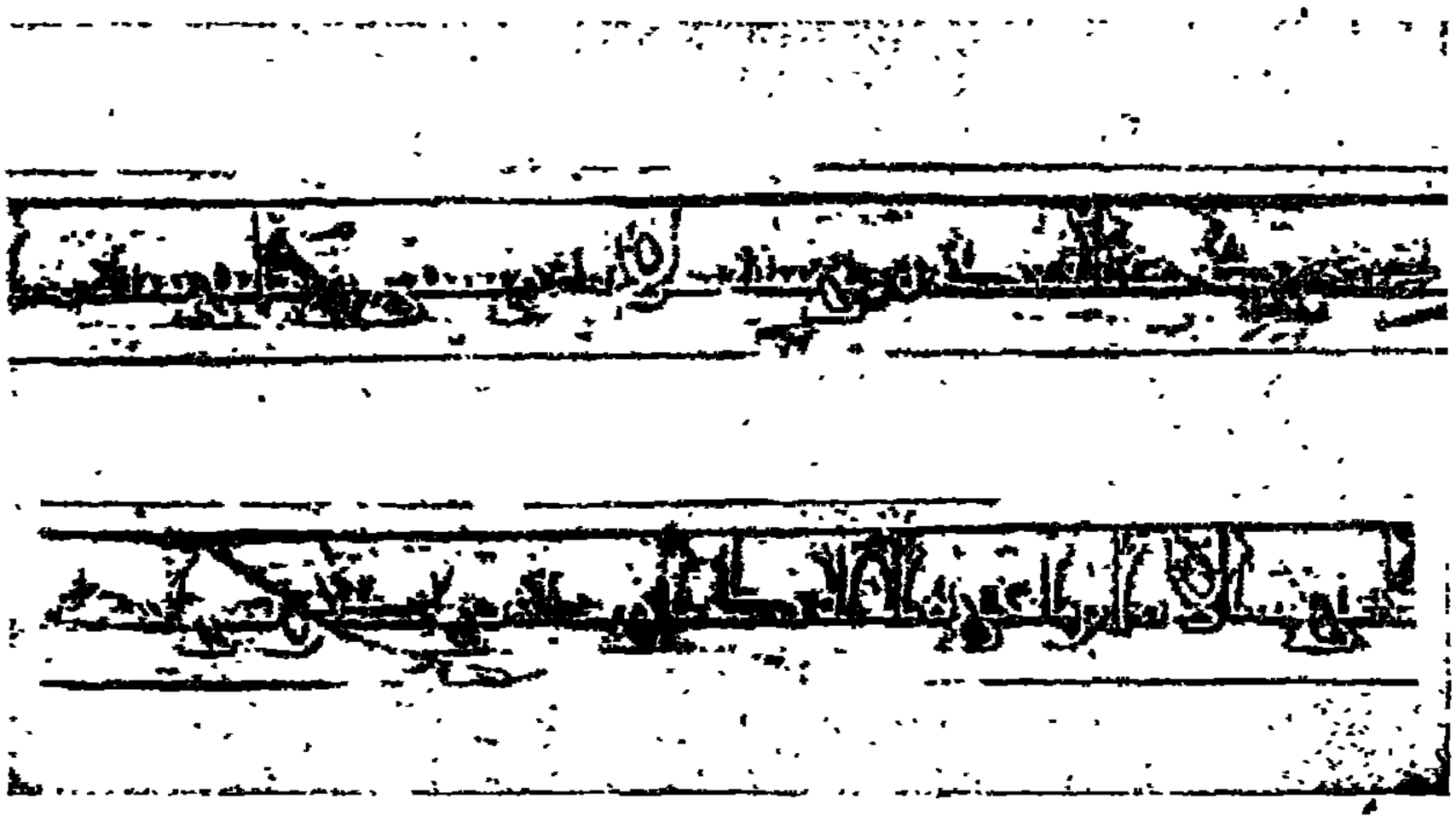

جزء من النص الذى يحمل التاريخ الصحيح لبناء جامع القرويين

ترى كيف يكون موقف المؤرخين أمام هذه النقوش التى احتفظت بالحياة منذ أحد عشر قرنا ؟ نحن الآن بين كتب حبرت على عهد بنى مرين فى القرن السابع الهجرى وبين هذه الوثيقة التى نقشت على عهد الأدارسة فى القرن الثالث الهجرى ، فأيهما كانت جديرة فى نظر المؤرخ الأمين بالنظر والاعتبار ؟ لاشك عندى فى أن أحدا من المنصفين لايتردد فى ترجيح هذه الوثيقة ومنحها الأسبقية على غيرها أولا لأنها كتبت فى نفس العصر الذى نتحدث عنه ، وثانيا لأنها تاريخ خام لم يلحقه تأثيرما، من قبل جهة ما ... وليس بالراجح فى نظرى أن نحاول الجمع بين رواية المصنّفات ومدلول هذه اللوحة فندعى أن أعمال البناء ابتدأت سنة ٢٤٥ واستمرت إلى سنة ٢٦٣ ، أى أن يحيى الأول بدأها وأتمها عمه داود وتكون فاطمة بهذا ظلت صائمة ثمان عشرة سنة ... ذلك لأن المصدر التاريخى أولا يخذلنا ثم ثانيا لأن مسجدا

لاتصل مساحته إلى ألف متر مربع لا يمكن أن يتطلب هذه السنين الطوال بالرغم من حالة الجفاف التى تعرضت لها البلاد فى هذه الأثناء ، وبالرغم أيضا من الطريقة التى سلكتها فاطمة فى بناء المسجد ، والتزامها ـ تحريا ـ أن تستخرج كل مواد البناء من نفس البقعة ... بقى إذن أن نتمسك بصك منقوش على عهد الأدارسة يحمل الإسم والتاريخ ، وأن ناقى على كاهل القرطاس والآس والعبر، تبعة مانقلوه عن غيرهم وفى الناس فريق قديتمسك باسم فاطمة القيراونية كمؤسسة ولو أن اللوحة استعاضت عنها بالإمام داود وذلك استئناسا من هذا الفريق بكون الشعوب قد تقوم بالمشاريع وترجو إلى الملوك تبنيها تقديرا لهم وتكريما لمقامهم. بيد أن عدم توفرنا على ترجمة مدققة لفاطمة من جهة ، وعدم نص المصادر على هذا التأويل « الجديد » من ناحية ثانية لايساعد على الاطمئنان ..

بقى بعد هذا أمر آخر لانرى مناصا من إثارته هنا ... وذلك مملكة داود ؟ أين مبدؤها وأين نهايتها ؟ ومتى امتد سلطان داود من تازة على فاس ؟ ومتى انتهى ؟ إن التاريخ ـ كما سبق أن قلت ـ بخل على داود بن إدريس بأكثر من سطر لم يتجاوز عشرة سنتيمترات ! فكيف يمكن أن نتصور الأمور على ضوء الأحداث ؟ بعد وفاة إدريس وزع ولى عهده محمد بلاد المغرب على « الثمانية الكبار » : عيسى والقاسم وعمر وداود الخ. ويحفظ التاريخ ثورة عيسى وتمرد القاسم كما يحفظ لعمر امتثاله لأمر أخيه محمد لتهدئة الثورات ، والتاريخ بعد هذا سكت عن بقية الأخوة الذين ظلوا محتفظين بولائهم محترمين لعهودهم ... وبعد وفاة محمد هذا كان ولى عهده هو ولده عليا الذى لم يبلغ من العمر عشر سنوات والذى توفى مبكرا سنة ٢٣٤، بعد أن عهد لأخيه يحيى الذى عرف بهوايته المعمارية والذى تنسب لأيامه جامعة القرويين ، وتوفى يحيى الأول هذا فى وقت مجهول ليأتى بعده يحيى الثانى الذى عرف بخلقه المائع والذى يجهل طبعا تاريخ توليته وتاريخ انسحابه من الحكم ، وبعد هذا تأتى « دولة » على بن عمر ابن إدريس الذى جهل أيضا تاريخ توليته وتاريخ انتهائها ! !

أريد أن أتصور أن هذين الملكين : يحيى الثانى وعايًّا بن عمر ـ وأمر توليتهما بدءًا وختاماً معلوم ! ـ لم يكونا شيئاً يذكر وإنما كان عمهما الذى يكبرهما سنًّا ويفوقهما حصافة فى الرأى والذى كان فى عداد المتزنين الذين احتفظوا بمراكزهم، أقول هذا العم كان هو المسيطر الحقيقى فى هذه « الفترة الغامضة » إلى أن تربع على الكرسى الملكى يحيى الثالث الذى اغتيل سنة ٢٩٢ ، كان هو المسيطر وإلا فبماذا نفسر أمره ببناء مسجد كمسجد القرويين سنة ٢٦٣ ، وبأى ميزان نزن عبارة الوثيقة الهامة : « أبقاه الله ونصره نصراً عزيزاً » .

الخلاصة أن القرويين بنيت سنة ٢٦٣ وليست سنة ٢٤٥ ، وأن بناءها تم على عهد الإمام داود بن إدريس وليس على عهد يحيى بن محمد بن إدريس ... وشىء ثالث من خلال هذا فإن داود كان فى عداد الملوك الأدارسة المبرزين الذين شيّدوا وبنوا وليس فقط عاملا عاديا من عمال أخيه على الناحية الشرقية لمدينة فاس .

عبد الهادى التازى